التأثير الإسلامي في الأدب الكشميري

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

يقال إن السلطان صدر الدين شاه (١٣٢٠ ـ ١٣٣٠م) قدم إلى منطقة كشمير من غرب التبت، وكان معاصرًا لملك إنجلترا إدوارد الثالث، وحين ولي حكم كشمير أراد أن يدين بأحد الأديان حتى تهدأ نفسه، فدعا أمراءه ووزراءه وناقشهم في أمر الدين، واتفق معهم على أنه سيتبع دين أول شخص تقع عليه عيناه في اليوم التالي، وحدث أن استيقظ السلطان (وكان يدعى في جاهليته رينتشن) في اليوم التالي ونظر فوجد شيخًا يتوضأ، ويتوجه إلى خالق الدنيا يركع ويسجد، فتأثر السلطان من طريقة صلاة الشيخ، وكان يدعى شريف الدين سيد عبد الرحمن تركستان شاه بلال ، وشهرته كشميري بلبل شاه، أعلن السلطان إسلامه وتبعه الوزراء والقادة وبدأ أهل كشمير يدخلون في دين الله أفواجًا.

بدأ أهل كشمير يتعلمون اللغة الفارسية واللغة العربية، ووصل الدعاة المسلمون إلى كشمير ومنهم شاه همداني الذي استقبل باحترام وإعزاز وتكريم، وزوده السلطان بجميع التسهيلات لنشر الدعوة الإسلامية، فأسس الرجل في كشمير نظاما خاصا للتبليغ، وأقام في سرينجر ما يشبه المدرسة التي تعد الدعاة والمبلغين لدين الله . وقد أشاد العلامة إقبال بجهود شاه همداني، ومدحه في أشعاره (ديوان جاويد ناق، ص ٧٤٦ كليات) .

وفي زمان السلطان زين العابدين (بدشاه) ورد عدد كبير من سمرقند إلى كشمير فعلموا أهلها الصناعة والحرف المختلفة وتغير المجتمع الكشميري تماما في ملبسه ومأكله، وفي آدابه وعاداته وتقاليده وطبعت البلاد بالطابع الإسلامي الخالص، ويقال إنه في زمان الإمبراطور المغولي أحضرت إلى كشمير شعرة مباركة لرسول الله فأطلق على كشمير اسم «المدينة المنورة الثانية»، وقال عنها أورنكزيب : «إنها قبة الإسلام» (انظر مأساة كشمير المسلمين د . حقي) .

اللغة الكشميرية :

لم تكن اللغة الكشميرية في وقت ما لغة رسمية لكشمير أو لغة لبلاط سلاطينها، ففي عصر ما قبل الإسلام كانت السيطرة للغة السنسكريتية، وفي العصر الإسلامي رغب الجميع في اللغة العربية والفارسية، وفي عهد السيخ ظلت الفارسية لغة المكاتب، وفي عهد الدوكره كانت الغلبة للفارسية، بعدها رغب الناس في اللغة الأردية والإنجليزية، أما اللغة الكشميرية فكانت كما قال إقبال « در ديار خود غريب افتاده است» غريبة

في ديارها. ولكن اللغة الكشميرية وجدت لأول مرة فرصة للرقي والتطور خلال العصر الإسلامي. لقد تأثرت اللغة الكشميرية التي تعد فرعا من فروع اللغة «الدردية» باللغة السنسكريتية، كما تأثرت فيما بعد باللغتين العربية والفارسية.

ونتيجة لتأثير العربية والفارسية بصورة واضحة ظهر أدب كشميري له روح آداب اللغات التي تتحدث بها الشعوب الإسلامية على امتداد البسيطة. ويقول أحد العلماء وهو غلام محيي الدين صوفي: «إن اللغة الأردية قد هيأت للغة الكشميرية هيكلها العظميّ، وكسته السنسكريتية باللحم، ونفخ الإسلام في هذا الجسد اللغوي الروح فأحياه». والمسلمون حيث ذهبوا لم يؤثروا فقط في المجتمع بل تركوا أثرًا واضحًا في اللغة والأدب، واللغة الكشميرية تكتب بالخط العربي وتستخدم حركات الإعراب أيضًا.

الإسلام والأدب الكشميري:

في زمان السلطان زين العابدين (ابن شاه) تأسست دار للترجمة قام العاملون فيها بنقل العديد من الكتب المكتوبة بالسنسكريتية واللغات المحلية الأخرى، أي اللغة الكشميرية، وحظيت الفارسية بنصيب كبير فترجمت أعمال أدبية فارسية إلى الكشميرية، ووصل إلى كشمير عدد كبير من شعراء الفارسية منهم مرزا صائب أصفهاني، وأبو طالب كليم، وكانت المساجد تعج بالعلماء الذين كانوا يدرسون ويعلمون اللغة العربية، وترجمت منظومات مثل: يوسف وزليخا، ليلى مجنون، هارون الرشيد، وشاهنامه الفردوسي، وبدأ الشعر الكشميري يعتمد العروض العربي الذي انتقل إليه عبر الشعر الفارسي، وأصبحت المصطلحات العربية والفارسية: الأدبية والدينية والعلمية جزءا لا يتجزأ من اللغة الكشميرية بالإضافة إلى الأمثال والمقولات التي صارت جزءا من لغة الأدب ولغة الحديث بين أهل كشمير.

بدأ الأدب الكشميري مثله مثل بقية الآداب بالأغاني الشعبية التي توارثها الناس وتناقلوها جيلا بعد آخر، وغير فيها كل جيل حسب رؤيته لها، وكانت هناك مُسمَّيات للموروث الشعبي الغنائي والشعري في كشمير نذكر منها:

روف: وهو غناء جماعي نسائي راقص، إلا أنه في كشمير وبعد انتشار الإسلام اقتصر هذا اللون على الغناء دون الرقص، كما غلب الطابع الديني على هذا النمط من النظم الذي يستخدم بحورا شعرية قصيرة وفيه تتبادل جماعتان من النساء الإنشاد أو تنشد جماعة فترد عليها الأخرى:

« هـــا هـــو العيـــد يقبل علينـــا

هيـــا نمضي إلى مكـــان الاحتفـــال بـــالعيـــد »

« هيـــا هيـــا يـــا صـــديقـــات

هيـا نمضي إلى حيث الاحتفـال بـالعيـد السعيـد ».

تنطلق جماعة الغنيات أو النسوة بالإنشاد فتجتمع أخريات ويزداد عددهن، وفي جو الريف الهادئ تنبعث النغمات فتصل من قرية إلى أخرى، احتفالا بشهر رمضان الكريم واستقبالاً ليوم العيد السعيد.

ونه ون: غناء خاص بالاحتفال بالزواج ويبدأ هكذا: «بسم الله الرحمن . . . . نبدأ نشيدنا، ندعو الله أن يتم هذا الزواج وأن يباركه» وتلا هذا أشعار في مدح الرسول ﷺ، ثم أشعار تتضمن نصائح للعروسين. ومن الجدير بالذكر أن هذا النمط من الغناء قد تحول بعد حركة التحرير في كشمير عام ١٩٣١م إلى موضوعات تتعلق بالجهاد.

وهناك أنماط أخرى نذكر منها أغاني الأطفال، والأغاني الجماعية الخاصة بالعمال والفلاحين وأهل الحرف وهي شبيهة بالمواويل الجماعية. ولرضى شاه وهو غناء يقوم به بعض المحترفين يمسكون دائرة حديدية بداخلها سيخ من حديد يعزفون ويغنون على وزن «فاعلن فاعلن فاعلاتن» وينشدون عن الحرب وعن القحط والفيضانات، كما يمتاز هؤلاء بروح الفكاهة والدعابة، أما «ويداكهو» فهو شعر خاص بالرثاء، ويأتي بعد ذلك الشعر الذي يتناول موضوعات الزهد والتقوى.

الشعر الكشميري:

بدأ الشعر الكشميري مع دخول الإسلام البلاد، وتطالعنا أشعار جيدة للشاعرة لله عارفه (ولدت عام ١٣٣٥م) في قرية قريبة من سرينجر التي تتلمذت على يد الداعية المسلم شاه همداني ـ تقول:

ليس هنـــاك مـن نـــور أبهى مـن نـــور العـــرفـــان الإلهي.

وليس هنـــاك من وسيلة لتسكين القلب غير التقـــوى وذكـر الله.

أما الشيخ نور دين نوران فقد اشتهر بالورع والتقوى والالتزام بتعاليم الدين (ولد عام ١٣٧٧م) وهب نفسه للدعوة لدين الله وتوعية الناس بتعاليم الإسلام، واتخذ من النظم وسيلة لذلك، ولهذا كان شعره عبارة عن «قطعة» تشتمل على بيتين كالرباعية ويطلق على القطعة في الأدب الكشميري مصطلح (شلوك) وقد ركز الشاعر على التوحيد الإلهي وذم الحسد والطمع والبغض، يقول:

« ذلك الـــذي وصلتـــه رســـالـــة الموت
بكتـــه الـــدنيـــا كلهـــا متســـائلـــة
هـل يمكن أن يبقـى على قيـــد الحيـــاة
ذلـك الـــذي دفن في بـــاطـن الأرض
وقـــد احتل قيـــد ذراع لا أكثـــر
لقـــد مـــات وانتهى ....
ولا يمكن إرجـاعـه حتى لـو كـان نبيًّـا ».

ويقول ناقدا أدعياء العلم بالدين :

« تـــرى في الظـــاهـــر حُسنًـــا وجمالاً
وفي البـــاطـن ســـوءًا وخبـــالاً
يصعـــد على المنبر يقـــول كـــلامًـــا
وعلى عكـس مـــا قـــال تـــرى أعمالاً
فنستغفـــر الله ليـس إلا ... ».

كانت هذه بدايات الشعر الكشميري الذي راح يرقى ويتطور على أيدي أدباء علماء ودعاة، شعراء وشاعرات، نذكر هنا خواجة حبيب الله بوشهري (توفي عام ١٦١٧م) الذي حفظ القرآن في طفولته وكان يجيد تلاوته، وضمن أشعاره الكثير من الأحاديث والآيات القرآنية، ونذكر صاحب كول (توفي عام ١٦٤٢م) الذي عاش زمان جهانكير، ومرزا أكمل الدين بخش (توفي عام ١٧١٨م)، وسيد غلام شاه آزاد (توفي عام ١٧٧٥م)، ومير عبد الله بيهقي الذي كتب مؤلفات زادت على ٧٠ مؤلفا !! وغيرهم ممن وصلوا بالشعر الكشميري إلى درجة أدبية رفيعة في مراحله الأولى.

وتكتمل ملامح الأدب الكشميري في بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، حين بدأ الشعراء ينشدون أشعارا متميزة، ونذكر منهم محمود كامي الذي اكتوى بسيطرة السيخ على بلاده وتوفي عام ١٨٥٥م، وموحد شعراء زمانه، وممن جاءوا بعده واعتبروه أستاذ الأدب الكشميري بلا منازع. نظم محمود كامي منظومات متنوعة منها : ليلى والمجنون، يوسف وزليخا، قصة السلطان محمود الغزنوي، قصة هارون الرشيد، ومن أشعاره على لسان زليخا :

جعلت لك مـــوضعـــا في فـــؤادي
لا يمكنني نسيـــــان محبتك
فـــــؤادي ملتهب بنيران محبتك
ورغم هـــــذا لا أشكـــــو
ولا أستطيـــع أن أنســـى محبتـــك.

وانفرد الشاعر ولي الله بأشعاره الدينية ومثنوياته ومنها الأسرار الأربعون، وضروريات الدين، وكان الشاعر ملتزما بمبادئ الدين متمسكًا بسنة رسول الله ﷺ، وقد مَنَّ الله عليه بالحج.

حين بدأ الجهاد في كشمير ضد ظلم الدوكره قبل عام ١٩٣٢م، راح الأدب الكشميري يتناول موضوع الحرية بجانب موضوعات العدل والإنصاف، وبرز الشاعر مهجور كاشميري (ولد عام ١٨٨٨م) الذي كتب بالفارسية والأردية والكشميرية، ثم اتجه بعد فترة إلى الكشميرية ينظم بها أشعاره. يذكر أهل كشمير بأمجادهم وعظمتهم، ويبث فيهم روح الأمل، فيوما ما سينالون حريتهم، وتوفي مهجور كاشميري سنة ١٩٥٢م بعد أن أصدر أول جريدة أسبوعية باللغة الكشميرية.

ومن الشعراء المجيدين أيضا عبد الرحمن آزاد، شاعر الجهاد وشاعر الإنسانية، توفي عام ١٩٤٨م، وكان عالمًا بالفارسية والأردية والكشميرية، استخدم الرمز في شعره، له منظومة بعنوان «النهر» شبه فيها الحياة بالنهر، والمنظومة قطعة أدبية خالدة في الأدب الكشميري، وصدر له ديوان بعنوان «ديوان آزاد» ومما جاء فيه :

« تفـــــــــــاقـم الظلـــم
وبـــــــدت تبـــــاشير الثـــــورة
بدأت البلابل (أي أهل كشمير) تنشـد أغـاريـد المحبة
وبـــــدأ ضـــوء الشمس يتسلل إلى كل مكـــان
وهكـــــــذا راح يُـــــرعـم قلبـي يتفتح
وبـــــدأت حـــــرقـــة كبـــدي تـــزداد ».

والشاعر هنا يوضح ملامح الحرية التي بدأت تظهر بين أهل وطنه، فالظلم يتوارى وإرهاصات الثورة تظهر في الأفق، والبلابل أصل كشمير بدأوا يشعرون بمحبة الوطن، والظلم يتلاشى والنور يظهر، وبراعم القلوب تتفتح، والحماس يثور داخل القلوب.

ثم كانت مرحلة أخرى من الكفاح، لا يتسع المجال هنا للحديث عنها ولنا موعد لنحكي عنها إن شاء الله.

شعر

أيُّها المُسْتَخْلَفُ القادمُ
للأرضِ اليَبابِ
أيّها المسكونُ عَزْماً
دونَه شُمُّ الهضابِ
لا تقلْ إنّ حياتي
خدعةٌ مثلُ السّرابِ
أيُّ معنىً في قدومي؟
أيُّ معنىً في ذهابي؟
رحلةٌ عجفاءُ قد مرّت
على دربِ الضَّبابِ
ثم تمضي مثلَ بَرْقٍ
خُلَّبٍ وسْطَ السَّحابِ
لستُ أدري أيَّ سِرٍّ
في مجيئي، أو إيابي؟

***

لم أجدْ مَعنىً لعُمْري
غيرَ نومٍ، وغذاءِ
غيرَ أيامٍ تَوالَى
في صباحٍ ومساءِ
عبثاً تبدو حياتي
ثم تمضي كالجُفَاءِ
إنّها لهوٌ عقيمٌ
وهَباءٌ في هَباءِ
إنّها لُغْزٌ مُعَمَّىٰ
في ابتداءٍ وانتهاءِ
لم أجدْ معنى غُدْوّي
ورجوعي في العشاءِ

***

أيّها السّرُّ الذي
يهبطُ من نورِ السماءْ
رحلةُ العمرِ غِرَاسٌ
وحَصادٌ، وبِناءْ
أنتَ ما جئتَ لنومٍ
أو نكاحٍ، أو غذاءْ
أنت ما جئتَ لتمضي
مثلما يمضي الغُثَاءْ
جئتَ للأرض نباتاً
يملأُ الكونَ نَماءْ
فلْيكُنْ جَنْيُك خصباً
ولْتَكُنْ يَنْبوعَ ماءْ

شعـر

شعر / د. وليد إبراهيم قصّاب

وَلْيكُـن صـــوتُك رَحْبـــاً
ودَويّـــاً في الفضـــاءْ
رحلـــةُ العمـــرِ عـــروجٌ
بـــالثـــرى نحـــو العـــلاءْ

***

انـــــزرغ خيراً عمياً
فـــوق أثْبَـــاجِ الصخـــورِ
وصبـــاحـــاً سرمـــدِيّـــاً
فـــوق هـــامـــاتِ الـــدُّهـــورِ
انغـــــرسْ رايـــــةَ خيرٍ
وشـــــــذا وَرْدٍ نضيرِ
أنـــت سرٌّ بـــــــازغٌ في
الكـــونِ، من صُنْعِ القـــديـــرِ

لا تُعَـــــذِّبْكَ الشكـــــوكُ
أو تُخَالِجْكَ الظنـــــــــونُ
لا تكُـنْ نَهْبـــاً لجَحْـــدٍ
فضـــــــــلالٌ، ويقينْ

***

لا يكُـنْ سيرُك تيهـــــــاً
في عَمَايَـــاتِ الـــدُّروبِ
لا يكـــن خَبْطُـــك أعْشَـــى
في شروقٍ، أو غـــــــروبِ
لا تسِرْ مثـــلَ القطيـــعِ
في شمالٍ، أو جنـــــوبِ
سِرْ على دربٍ نقـــــيٍّ
نـــاصعِ الـــوجـــهِ، لَحُوبِ

***

بئس أن تـأتيْ ولم تعـــــــرفْ لماذا قـــــد أتيتْ؟
بئس أن تنـــــأى ولم تعـــــرفْ لماذا قـــــد نأيتْ؟
بئس أنْ تجريْ ولا تـــــدري لماذا قـــــد جـــــريتْ؟
سعيُك المحمـــــومُ . . إعـــــرفْ ولماذا قـــــد سعيْتْ

قصة

أغلى من الحياة !

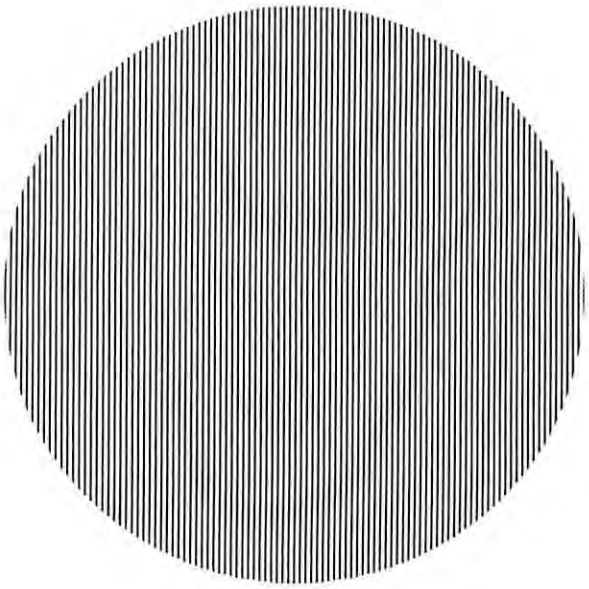

بقلم: نافذة أحمد الحنبلي

عندما بدأت السماء بترحيل الغيوم عن صفحات وجهها لتبدأ ثانية بالابتسام لربيع أرضها التي عانقت زهورها الوردية وحملت بسنابل القمح الذهبية . . .

كانت هناك امرأة تضرب بمعولها بطن الأرض وتبذر بذور القمح والرياحين . . . . وقفت هنيهة، ورفعت رأسها إلى السماء داعية الله بأن يحفظ لها هذه الأرض التي تأكل من رزقها وتعينها على قوت يومها، وإذا بدمعة حارقة تنزلق على وجنتها التي لوحتها الشمس .

قالت الدمعة : يا أم أحمد مهلاً وصبراً، صحيح أنك فقدت زوجك وأنت لا زلت في ريعان الصبا، وكنت مثل هذه الأرض التي تحمل بسنابلها، حيث كان أحمد ينمو بين أحشائك، وصحيح أن زوجك كان مثال الرجل القوي المؤمن الذي استشهد دفاعا عن أرضه وعرضه، وأنت يا أم أحمد صامدة كشجرة السرو التي تقبع أمام مدخل هذه الأرض متحدية جنون العواصف وخفق الرياح .

أم أحمد : آه يا دمعتي إنك لا تعرفين ما يعتصر قلبي من الألم والحزن على فراق أبي أحمد، الذي رحل قبل أن يعرف وجه ابنه، إنه كان الحبيب والصديق والأخ والأب، تخيلي يا دمعتي أن أفقد أربعة معاً في شخص زوجي أبي أحمد! . . .

الدمعة : على رسلك يا أم أحمد هوّني عليك، فأنت القوية المؤمنة الصابرة، فغداً عندما ترين أحمد بدأ يكبر كحبات الزيتون التي تزين أغصانها، وكبراعم اللوز الثلجية التي تكسو عيدانها، وعندما ترين شقائق النعمان رفعت رأسها لتعانق خيوط شمس الربيع الذهبية، عندها ستعلمين أن جهدك وصبرك قد أزهرا فرحا وأملاً . . .

أم أحمد : آه يا دمعتي أحس بأن بيني وبينك صداقة حميمة، فأنت الوحيدة التي تكتشفين ضعفي دائماً وتحسين بحرقة قلبي . . .

الدمعة : كفكفيني يا عزيزتي لئلا يعود أحمد الآن من المدرسة فيراك حزينة فيحزن قلبه .

أم أحمد تمسك بطرف طرحتها بأناملها التي كساها التراب وتمسح دمعتها وتحاول أن ترسم ابتسامة رضا على شفتيها . وإذا بأحمد يأتي مهرولا من طريق القرية الترابي ويحاول الوصول إلى أرض أمه وأبيه . . . أم أحمد تراقب ابنها بسرور، فقلبها يرى فيه صورة أبيه الشهيد الذي لا يفارق خيال أمه، وهي تحاول دائماً تأمل طول ابنها الذي أخذ الآن بالاقتراب من سن الشباب المبكر وأخذ يشبه أباه .

أم أحمد تهمس : آه ما أجمل طلعتك يابني، ففيك كل حركاته وسلوكه، وأدعو الله أن تكون مثل أبيك مؤمنا صابرا مجاهدا، فأنا أكره جبناء الرجال والمتخاذلين والذين لا يؤدون حقوق الله

وما أن اقترب أحمد من سياج مزرعته حتى تراءت سيارة جيش إسرائيلية تسرع بجنون وكأنها تريد الطيران فوق السحاب والنجوم . . .

وقفت فجأة ونزل جنود الاحتلال من السيارة عند رؤيتهم أحمد، وانهال جنودها الخمسة ضربا عليه دون سابق إنذار . . .

صرخ أحمد من الألم وقال منده شا : ماذا فعلت ولماذا تضربونني ؟؟

الجنود يوسعونه ضربا بأحذيتهم العسكرية الضخمة وأكواع بنادقهم على وجهه وصدره وساقيه . . . أحمد يصرخ ويحاول أن يقاوم . .

أم أحمد تركض وتركض وكأن المسافة بينها وبين سياج الأرض آلاف الأميال فهي لا تكاد تصدق أنها سوف تصل إليه، فإحساسها بأن المسافة تبعد وتبعد كلما حاولت الاقتراب، وأخيرا وصلت وانهالت على الجنود بفأسها فأردت أحدهم قتيلا، وهجم أحمد على الآخر وخطف بندقيته . . بدأ بإطلاق النار على الجنود وهي تكبر الله أكبر . . الله أكبر، ودارت معركة عنيفة بين الجنود من جهة وبين الأم وابنها من جهة أخرى إلى أن استطاع أحمد وأمه قتل ثلاثة جنود، ولكن أحمد وأمه أصيبا بإصابات بالغة جعلتهما يتضرجان بدمائهما إلى أن لفظا أنفاسهما الأخيرة

يصق الجنديان على جثتي أحمد وأمه وركلاهما بأقدامهم وتركاهما ينزفان تحت شجرة السرو وفرا بسيارتهما .